الفصل الثالث

ولو خطفتني الذئاب !!

كان موقف الصِّدِّيق يوم وفاة الرسول بمثابة « البُوصلة » التى حدَّدَت اتجاه التاريخ نحو الرجل الذى سيملأ الفراغ الكبير الذى تركه الرسول برحيله .

فالرجل الذى لم يفقد شيئاً من « ثباته » أمام المفاجأة التى روّعت المسلمين ، جميع المسلمين .. ! !

الرجل الذى احتفظ برباطة جأشه ، وسكينة نَفْسه وَسَداد فكره على هذا النحو الفذّ فى هذا الموقف الذى يَدَعُ الحليم حَيران .. ! !

هذا الرجل هو الجدير بأن يتقدم ويقود .

ولم يكن ذلك فحسب ، مناط التزكية والتقديم ..

فهناك الماضى الحافل بكل بُطولة وكل مَكْرُمَة ..

وهناك إرهاصات بخلافته تُشير إلى دوره المقبل وتُزكِّيه .

فى مرض الرسول عليه السلام ، اختار أبا بكر ليصلى بالناس مكانه ، وقال : « مُرُوا أبا بكر ، فَلْيُصَلِّ بالناس » ..

وحين راجعته السيدة عائشة فى هذا قائلة : « إن أبا بكر رجل رقيق

القلب ، وإنه إذا قام مقامك غلبه البكاء . فَمُر « عمر » أن يُصلى بالناس » ..

حين رجع النبى فى الأمر غضب ، وأعاد أمره مرتين :

« مُرُوا أبا بكر فَلْيُصلِّ بالناس » ..

وامتثل الصدِّيق أمر الرسول ، وهو لا يدرى ، أو لعلَّه كان يدرى أنه فى تلك اللحظات إنما يتسلَّم الراية من رسول الله ليحملها من بعده .

ولقد فوجئ أبو بكر إثر وفاة الرسول مباشرة بموقف لم يكن يخطر بباله .

ذلكم هو موقف السقيفة الذى بدأ مُنذراً بِشرٍّ مستطير ، ثم انتهى نهاية موفورة العافية والسعادة ، إذْ بُويعَ أبو بكر خليفة وإماماً ..

وحين نطالع تاريخ « أبى بكر » لا نجد لديه أدنى رغبة فى أن يحكُم الناس ، أو أن يكون خليفة عليهم .

إن شأنه فى العُزوف عَن مناصب الدنيا ، شأن عمر .

بل إن « عمر » فى زهـــده الجاه والمنصب ، كان يتأسَّى بأبى بكر ، ويتتبع خُطاه .

وجاء يوم السَّقيفة ليجتاز إيمانه امتحاناً رهيباً .

وكُتب على الرجل الذى كانت هوايته أن يعيش فى الظِّلِّ ما لم يكن ثَمَّة خَطر يدعوه .

الرجل الذى كانت قُرَّةُ عينه فى ألاَّ تقع عليه عين وهو فى مكان صَدَارَةٍ يبعث فى النفس زهْواً وعُجْباً .

الرجل الحَيِىُّ ، الوديع الأوَّاب . كُتِب عليه أن يعلُوَ صدر الأحداث فجأة ، لا طمعاً ولا رَغَباً ، ولكن تلْبيةً لتبعات إيمانه ، ومسئوليات دينه .

* * *

فعلى أثر وفاة الرسول عليه السلام ، اجتمع نفر كبير من الأمصار فى سَقيفة بنى ساعدة ليبايعوا « سعد بن عُبادة » ..

وعلم أبو بكر فذهب إلى السقيفة ومعه عمر وأبو عُبيدة بن الجراح .

لم يُسارع أبو بكر ليحتجز الخلافة لنفسه ، وإنما سارَع ليكُفَّ الفتنة أولاً ، ثم ليكبحَ جماح الطائفية ، حيث وقف من يقول يا لَلأنصار ومَن يقول : يا لَلمهاجرين ..

ثم ليسلُك مع المسلمين الطريق الأمْثَل لاختيار الخليفة الذى يستطيع أن يملأ الفراغ الرهيب الذى كان يملؤه رسول الله .

واجَه أبوبكر الجمع المحتشد فى أناة .

كان ثَمَّة كلمات تتطاير كالرصاص المقذوف ..

كان ناس من الأنصار يحرضون الأنصار على التشبث بالخلافة بأسلوب حادٍّ ولَاهِب .. !

وكان هناك مُهاجرون يرفعون أصواتهم الزَّاجرة ضِدَّ رغبة ذلك النفَر من الأنصار ..

لقد فقد الناس أكثر صوابهم بموت رسول الله ، فلماأداروا خواطرهم حول موضوع الخلافة وهم فى جوِّ الكارثة لا يزالون ، اضطربت الأمور فى أيديهم ، واتَّسعَ نِطاق البَلْبَلَة والاهْتياج ..

وليس أدلَّ على أن هذا الموقف كان دخيلاً عليهم وعلى إيمانهم من عودتهم السريعة إلى رُشْدهم واجتماع كلمتهم الغالبة حول هذا الحليم الأوَّاب ..

صحيح أن أبا بكر سَيُؤْثر المهاجرين بالخلافة ، ولكنْ ، ليس لأنهم مهاجرون أو قُرشيون ، بل لأن الهجرة أعطتهم مكان السَّبْق فى الإسلام .

فالهجرة كانت نهاية لمرحلة العُسْرة التى سُلط عليهم فيها كل بأس قريش

لِيُفْتَنُوا عن دينهم ، فما ازدادوا إلا إيماناً وثباتاً ..

وهذا هو الميزان الذى يزن أبو بكر به الناس .

ولقد استنبطه من كتاب الله سبحانه إذ يقول :

– « وَالسَّابِقُونَ ٱلأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَاجِرِينَ والأنصـارِ » ثم هو سيُؤثِر المهاجرين بالخلافة أيضاً لأن النفر الذين طلبوا الخلافة من الأنصار ، قد حرصوا على أمر جَرت عادة الرسول ألايُمكِّن منه من يطلبه أو يحرص عليه ، وهو الولاية ..

وإن أبا بكر ليذكُر ذلك اليوم الذى ذهب فيه العباس عم النبى يسأله أن يوليه ولاية ، فأجابه عليه السلام قائلاً :

– « إنّا والله لا نُوَلِّى هذا الأمر أحداً يسأله . أو أحداً يحرص عليه » .. ! !

ذلك لأن مسئولية الحكم غُرمٍ لا غُنْم .. وتضحية لا تزكية ، فإذا حرص عليها أحد ، فمعنى ذلك أنه لا يقدر المسئولية التى تنتظره عندها .. ! !

وهناك عند السقيفة همَّ عمر ليتكلم فى الحشد الثائر ، ولكنَّ أبا بكر أومأ إليه بيمينه ، واستأذنه فى أن يبدأ هو الحديث :

– « يامعشر الأنصار .

« إنكم لا تَذكُرون فضلاً إلاَّ وأنتم له أهل » ...

هكذا بدأ الصِّدِّيق قوله .. ثم راح الحديثُ يَنْساب من قلبه .

ومَضى يُدلى برأيه فى مَن يُرشح للخلافة .

إنه واحد من اثنين .

عمر بن الخطاب .. الرجل الذى أعز الله الإسلام به ..

وأبو عبيدة بن الجراح .. الذى وصفه الرسول بأنه « أمين هذه الأمة » ..

واقترب منهما أبو بكر وتوسَّطَهما ورفع ذراعيهما بكلتا يديه ، وقال للناس : « لقد رضيتُ أحدَ هذين الرجلين ، عمر ، وأبى عبيدة .. » وارتعدت يد

« عمر » كأنما سقطت عليها جمرة ملتهبة ..

وغض « أبو عبيدة » عينيه الباكيتين فى حياء شديد ..

وصاح عمر :

– « والله لأن أُقَدَّم فيضرب عُنقى فى غير إثم . أحب إلىَّ من أن أُؤَمَّر على قوم فيهم أبو بكر » .. ! !

وكان جلال هذا المشهد أبلغ من كل مقال ..

فما كاد عمر يلقى بكلمته هذه ويتقدم باسطاً يمينه ، مُبايعاً أبا بكر .. حتى ازدحم الأنصار على البيعة وكأنما دعاهم من السماء داع .. ! ! !

لقد كره المسلمون أن يعيشوا يوماً واحداً بغير إمام يجتمع عليه أمرهم .

فذهبوا يبحثون الأمر . ورسول الله لم يُدفن بعد ، وأعصابهم رازحة تحت وطأة موته ..

ولقد كان من المحتمل ألاَّ ينتهى « يوم السقيفة » دون أن يترك فى البناء شروخاً غائرة » .

لكن الله أكرم الإسلام والمسلمين يومها بأبى بكر . واجتاز الناس فى سلام عظيم أول تجربة من نوعها وأقساها ..

وغربت مع شمس ذلك اليوم كل الخلافات .

إن العظائم كُفْؤُها العظماء ..

ولقد اختار القدرُ هذا العظيم ليواجه جلائل الأمور وعظائم المستقبل .

ولسوف يُثبت هذا الخليفة العظيم جَدارَته بالمكانة التى بوَّأه الله إياها فى قلوب الناس ، وفى قلب التاريخ .. وسيتحرك تجاه الأحداث الداهمة بأسلوب يكشف عن مَدَى ما يستطيع الإيمان أن يقهر من صعاب . ويأتى من معجزات ..

فما كاد نبأ موت الرسول عليه السلام يَذيع فى البلاد حتى تصوَّر المرجفون والذين فى قلوبهم مرض ممن كان إسلامهم مُداهنَةً وتَقِيَّةً .. تصوروا أن الرسول لم يمت وحده ، وإنما مات الإسلام معه .. وعليهم أن يتحركوا بسرعة ليرثوا ذلك الدين الذى انتهى فى ظنهم ، وليستردوا جميع الامتيازات التى كانوا قد فقدوها تحت ضغط الدين الجديد ..

وهكذا بدأت انتفاضات ، لم تلبث حتى تحولت إلى رِدَّة مستشرية ، وجيوش يُنادى بعضها بعضاً للزحف على المدينة ، والإجهاز على الإسلام .

فى البلاد البعيدة من المدينة كان أكثر المسلمين حديثى عهد بالإسلام ، وكان الدين مرتبطاً فى وجدانهم ارتباطاً كاملاً بصاحبه وبرسوله . فلما مات الرسول ، وقام فيهم من رؤسائهم من استغلَّ حَداثَة إسلامهم ، ساروا وراءه مرتدين .

والحق أنها لم تكن أول الأمر ردّة كاملة عن الدين .

إنما كانت « إضراباً » عن دفع الزكاة ..

لكن أبا بكر رآها ردّة ، ورآها عَجْماً لِعُود الإسلام بعد أن مات رسوله ، فإذا أبدى الإسلام عن أىِّ ضعف أمام هذا التمرد ، فَستجاوِز العواقب كل حُسبان – ويومئذ ظهر رأيان ..

• رأى يرى ألاَّ يُقاتَل هؤلاء ، ماداموا لم يقترفوا سوى امتناعهم عن دفع الزكاة ، وعلى رأس هذا الفريق ، عمر بن الخطاب .

• ورأى آخر ، يرى أن الزكاة – أولاً – ركن من الدين ليس من حق الخليفة أن يدع الناس يهدمونه ، ويرى – ثانياً – أن الامتناع عن أدائها ، ليس سوى البداية .. وليس سوى حركة استطلاع ، يتوالى بعدها التمرد والقضاء على الإسلام .

وحمل لواء هذا الرأى أبو بكر .

وهنا يَبِين الفارق الخفى بين طرازين من العظَمة ، وهو فارق تَناهَى فى الخفاء والدِّقّة ..

ولو سئل الناس – جميع الناس – قبل أن يعلن كل من أبى بكر وعمر عن رأيه فى هذه الأزمة .

لو سئِل الناس ، مَن الذى سيكون أكثر صرامة ، وشدة ، ومن الذى سيكون أكثر ليناً ومُهادنة لما ترددوا فى أن يشيروا إلى « عمر بن الخطاب » منادياً بالقمع الصارم ، وإلى « أبى بكر » داعياً إلى الأناة والملاينة .

ومع هذا ، فالذى حدث كان العكس والنقيض ..

فلقد باكرَ « الصدّيق » الأزمة بإرادة مشحوذة مصممة على أن تَضرب فى غير تردُّد ، موضحاً اقتناعه فى هذه الكلمات :

– « والله لو منعونى عِقَال بعير كانوا يعطونه لرسول الله لقاتلتهم عليه بالسيف » ! !

أما « عمر » ، فيقف من الأزمة موقفاً مغايراً .

ويوجه إلى الخليفة هذا السؤال :

– « كيف تقاتل قوماً يشهدون أن لا إلهَ إلا الله ، وقد أخبر الرسول أنَّ مَن قالها فقد عصم دمه وماله » .. ؟؟

ويجيبه أبو بكر سائلاً :

– ألَم يقل الرسول « إلاَّ بحقها » .. ؟ أَلَا إن الزكاة من حقها ..

ووراء موقف أبى بكر هذا ، علامتان مضيئتان ..

أولاهما ، تكشف عن يقين أبى بكر « المؤمن » ..

وثانيتهما ، تكشف عن بصيرة أبى بكر « الخليفة والزعيم » ..

* فيقينه بالله وبرسوله يرتفع إلى مستوى الإذعان المطلق لما ألقياه من أمْر ومنهاج .

وهو بهذا يحمل كل مسئوليته عن الدين ، فلا يسمح بأن يتغير على عهده شيء من شرع الله وسنة رسوله . وكلُّ فريضة توفى الرسول وهى قائمة ، لابد أن تظل قائمة مهما تكن التضحية .

* وهو ببصيرة القائد والحاكم والزعيم . يرى أن أية بادرة من الضعف تغشى الإسلام فى هذه الأزمة الفاصلة . ستُغْرِى قُوى النكسة والظلام بالوثوب عليه من كل واد ..

وبإيمانه ذاك ، وببصيرته هذه ، تشكَّلت فى باطنه قوة هائلة هيأت عقله وإرادته لمواجهة الموقف على النحو الذى سبق ، والذى أظهر سَيْر الحوادث أنه لولاه لتعرض الإسلام لما يشبه الفنَاء ..

لكن هذا الإيمان وهذه البصيرة لم يكونا يعملان بمعزل عن رأى الجماعة ، وحقها فى الشُّورى والمناقشة .. ! ! !

فعلى الرغم من أن أبا بكر فى أزمة الردة كان يستطيع أن يمضى فى الحرب دون أن يقتنع بها الآخرون ، بل حتى لو لم يقتنع هو بها ، لأنه فى هذا – إنما يُنفِّذ حكماً شرعيًّا لا يملك هو ، ولا المسلمون أن يبدلوه ما داموا قد آمنوا بالقرآن واتخذوه دستوراً وشِرْعة ، وما دام القرآن يقول لهم : « قاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » . . . .

على الرغم من هذا ، فإن أبا بكر لم يمتشق حُسامه حتى اقتنع المسلمون برأيه ، واقتنعوا بأنهم حقًّا ليسوا أمام مجرد محاولة للنكوص عن دفع الزكاة .. بل هم أمام تجمهر مُسَلَّح ، وزحف أكيد على المدينة وعلى الإسلام ..

وساعتئذ قال عمر قولته المأثورة :

« فما هو إلاّ أَنْ شرحَ الله صدرى لرأى أبى بكر » ..

وقال ابن مسعود كلمات تصور الموقف أصدق تصوير :

– « لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كِدنا نَهلِك فيه لولا أَن مَنَّ الله علينا بأبى بكر » ! !

لقد كان ثَمَّةَ قَدْر يسمح باختلاف الرأى فى هذا الموضوع ويأذن بتباين النظر .. ومن ثمَّ عرض أبو بكر المسألة للمناقشة مُبدياً تصميمه على أن يحمل المسئولية التى يفرضها عليه القرآن .

وكان هذا القدْر الذى يسمح بتبادل الرأى متمثلاً فى الصورة التى بدأت بها المحاولة المرتدَّة .. إذ كانت فى الساعات الأولى لها مقصورة كما ذكرنا على الامتناع عن دفع الزكاة .

فهل يُوجب الامتناع عن دفع الزكاة القتال . . ؟

وبأسلوب عصرنا الحديث نقول : إن الأزمة بدأت بحركة « عصيان مدَنى » تمثَّل فى الامتناع عن دفع الضرائب ، وتحوَّل إلى « عصيان مسلح » ليؤكد حقه فى هذا الامتناع ..

فهل تقف الحكومة ساكتة ضارعة أمام هذا التَّحدِّى .. أو تحمل مسئوليةَ زجرِه وقمعه ..؟

هذا ؛ مع ملاحظة أن الذين امتنعوا عن دفع الضريبة وحملوا السلاح ، لم يظلوا مكانهم فى ديارهم مكتفين بموقف الدفاع إذا هوجموا ، بل نادى بعضهم بعضاً ليزحفوا على المدينة ..

هذا هو وَضع الأزْمَة تماماً .

ومع ذلك ، فقد بلغ التَّسامح تجاهها أن يختلف فيها المسلمون ، ويتبنَّى الرجل الثانى فيهم وهو عمر بن الخطاب ، الرأى الهاتف بالمُوادعة ، وتركَهم

حتى يَفِيئوا تلقائيًّا إلى أمر الله وهُداه .. ! !

* * *

ونغادر موقف الردّة هذا وقتاً وجيزاً ، لنرى موقفاً آخر سبق وقفة الردّة ، وتجلّى فيه إيمان أبى بكر بربه ، وبرسوله على نحو يجعل من هذا الرجل الشّاهق الباهر نَسِيجَ وحده فى الإيمان .. ذلكم هو موقفه من بَعث أسامة ..

فقبل وفاة الرسول ، كان عليه السلام قد أعدَّ جيشاً تحت إمْرَةِ « أسامة بن زيد » ، وِجْهته الشام ..

وكان الجيش يوم مات الرسول مُعَسكراً على بعد ثلاثة أميال من المدينة ، يتهيأ للسَّير .

وأرجأتْ وفاة الرسول زَحْفه .. واختلف الرأى بعد هذا فى أمره ..

فرأى فريق من المسلمين وعلى رأسهم عمر بن الخطاب أن بَعْث جيش أسامة إلى الشام مخاطرة رهيبة فى الوقت الذى أصبحت المدينة نفسها عاصمة الإسلام مهددة بغزو المرتدين .

ورأوا ضرورة عودة الجيش إلى المدينة ليكون فى مواجهة الأحداث الجديدة الزاحفة .

وكان « أسامة » نفسه قائدُ الجيش من أصحاب هذا الرأى ..

والمسألة حين تُقاس بالمنطق المجرد لا يبدو الصواب إلا فى هذا الرأى الذى تبنّاه عمر وأسامة ..

لكن أبا بكر يستمد منطقه من إيمانه .. وكل قضية عنده تتسع للاجتهاد إلا قضية أبرم الله فيها حكماً ، أو أصدر الرسول فيها أمراً . ولقد أمر الرسول عليه السلام قبيل وفاته أن ينفُذ بَعْثُ أسامة ، فليكن ما أمرَ الرسول به ، مهما تكن مستحدثات الظروف ، ومهما تكن الأخطار التى تهدد المدينة .. ! !

وهكذا كان جواب أبى بكر للناس :

– « أَنفِذوا بَعْثَ أسامة ؛ فوالله لو خَطِفتنى الذئاب لأنفَذتهُ كما أمرَ رسول الله ، وما كنت لأردَّ قضاء قضاه » .. ! !

لم يعد ثَمَّةَ نزاع فى الأمر ، ولم يكن أبو بكر بتصميمه هذا مُفتاتاً على آراء الآخرين ، لأن القضية أساساً ليست مما يُعرَض للشورى بعد أن قال فيها رسول الله كلمته وأعطى أمره .

وأبو بكر يُؤْثر أن تتخطفه الذئاب على أن يردَّ للرسول قضاء ، أو يُعطِّل مشيئة .. ! !

وعاد بعض المسلمين وعلى رأسهم « عمر بن الخطاب » أيضاً ، يطلبون من « أبى بكر » أن يجعل على رأس الجيش قائداً غير « أسامة » الذى كان فتى صغير السن محدود الخبرة ، لا سيَّما وفى هذا الجيش شيوخ الصحابة وأجِلَّاؤهم .

وهذه المسألة أيضاً إذا بُحثت فى ضوء المنطق المجرد يبدو ذلك الرأى سديداً .

لكن أبا بكر فى هذا ، شأنه فى كل أمر يستمد منطقه من إيمانه ..

فالذى وَلَّى أسامة قيادة هذا الجيش ، هو رسول الله ..

ولقد رضيه الصحابة ورسول الله حى ، أفيخلع أبو بكر رجلاً ولاَّه الرسول ..؟؟

لم يكد عمر يعرض الرأى المقترح على أبى بكر حتى ثار الرجل الحليم ثورة ما ثار مثلَها قبلُ ولا بعد .. !

ولْنَدَعْ شاهد عيان يصف لنا المشهد فيقول :

– « وثَبَ أبو بكر من مكانه وأخذ بلحية عمر ، وقال : وَيْحك يا ابن الخطاب .. أيُوَلِّيه رسول الله ، وتأمرنى أن أعزِله » ؟؟ ! !

« ثم قام يتبعه عمر إلى حيث كان الجيش معسكراً ، فدعاهم للتحرك على بركة الله وسار معهم مُودِّعاً ..

« ومشى الخليفة على قدميه إلى جوار أسامة الذى كان ممتطياً ظهر فرسه ..

« واستحيا أسامة فهمَّ بالنزول داعياً خليفة رسول الله إلى الركوب ..

« فثبَّته أبو بكر بيده فى مكانه وهو يقول ، والله لاَ نَزَلْتَ ولا أَرْكب .. وماذا علىَّ أن أُغبِّر قَدَمَىَّ فى سبيل الله ساعة » ..؟!!

كل أمر عنده سهل ، وكل جَلَلٍ يهون ، إلا أمراً يدعوه إلى الخروج قيد أنملة عن طاعة الله ورسوله ..

إن بينه وبين الله عقداً ومِيْثاقاً يتمثلان فى إيمانه الراسخ الصامد ..

وإنه لَمصمم على أن يحمل حتى الموت كافة الالتزامات التى يفرضها هذا الإيمان . ولو تخطَّفته الذئاب !!

وهو على يقين أن الإيمان يحمل معه بصيرته التى تهدى إلى الحق وإلى الصواب .

وفى قصة أسامة بالذات تجلَّى صدق هذا اليقين .

فإصرار أبى بكر على إنفاذ بعْث أسامة لم يُوْء عليه مثوبة الطاعة فحسب ، بل أفاء عليه الرُّشد والمنهج الصواب ..

فهناك صوْب الشمال كانت الفتنة قد شرعت تَذِرُّ قَرْنيها ..

ولكن لم تكد القبائل التى مرَّ بها جيش أسامة وهو فى طريقه إلى الشام .. لم تكد تبصر هذا الجيش اللَّجِب حتى عاد إليها صوابها ، وقال بعضهم لبعض :

– والله لو كانت المدينة تَئِن تحت وطأة الضعف والخلاف كما سمعنا ، ما كان بِوُسعها أن تبعث هذا الجيش ، فى هذه الأيام لتقاتل الروم – .. !!

وهكذا كان مجرد تحرُّك الجيش إلى غايته مُثبطاً أىَّ مثبط لكثير من القبائل

التى كانت فتنة الرِّدة تتسلل إليها .. ! !

* * *

ونعود إلى الصِّديق وهو يواجه الرِّدَّة بإيمانه الصلْب .

وعندما نعيش مع المصادر التاريخية التى سجَّلت أحداث تلك الأيام الفاصلة يأتلق حتى يملأ الأفق سؤال أكيد هو :

- أىّ مصير كان ينتظر الإسلام لو لم يكن أبو بكر يومئذ هناك ... ؟؟

لقد كان ابن مسعود يُبَسِّط الحقيقة الكبرى فى قولته السالفة .

« لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً كدنا نهلك فيه ، لولا أن مَنَّ الله علينا بأبى بكر » ..

أجل ، لقد كان « أبو بكر » يومئذ نعمةَ الله ومَثُوبته للدين ، وللناس ...

فقد تضرَّمت الأرض ناراً فى الجهات النائية من المدينة والتى كان معظم أهلها حديثى عهد بالإسلام ، ولم يكونوا يتصورون بفطرتهم الساذجة أن رسول الله يموت كما يموت الناس ، وهكذا بهذه السرعة .. !

لقد سقط هؤلاء تحت صياح الكاذبين المهرَةَ الذين كانوا يتربصون بالإسلام كل سوء .

لقد انشقت الأرض فجأة عن كل الموتورين به والمتربصين . وعن أنبياء كَذبة ، قادوا ببراعة الإفْك ، جميعَ الذين كانت الغفلة تُرشِّحهم لأن يكونوا ضَحايا أكاذيبهم ، لا سيما أولئك البعيدين من المدينة والداخلين فى الإسلام من قريب ..

وقف طُليحة الأسدى يعلن نُبوَّة كاذبة ، وتبعه الكثيرون من قبائل أسد ، وغطفان ، وطيئ ، وعبس ، وذبيان ..

ثم اشتعلت نيران الردَّة فى بنى عامر ، وهوازن ، وسليم ..

ثم شبَّت فى بنى تميم ، وجاءتهم المرأة « سَجاح » تزعَق فيهم بنُبوَّتها الضالة المُهرِّجة .. ! !

ثم تمرَّد أهل اليمامة رافعين لواء أخطر مُدَّعى النبوة جميعاً - مُسيلمة الكذاب ..

وهكذا ، بعد أن كان أبو بكر يُواجه فُلولاً صغيرة ، أصبح أمام جيوش جرارة ، قوامُها عشرات الألوف من المقاتلين .

وسرَت العدوى إلى أهل البحرين ، وعُمان ، والمهرة ، وصار هؤلاء وأولئك يتغنون ببيت من الشعر أطلقه أحد شعرائهم ..

أطَعنا رسول الله ما دام بيننا فيالَعِبادِ الله ، ما لِأبى بكر ؟؟

ولكنْ ، لله من خَلْقِه رجال تتحوَّل المحن بين أيديهم إلى مِنَح ، والكوارث إلى ربيع ، تملؤه رُوح الحياة .. ! !

وأبو بكر ، من هؤلاء الرجال ... ! !

فخلال هذه المحنة الصاهرة التى ألمَّت بالإسلام ، تكشفت كل جوانب الضعف فى البناء البَشَرى للإسلام ، وهبَّ الرجل الحكيم القوى من فوره ، فرأبَ الصَّدْع ، وحوَّل الصفَّ إلى تماسكٍ واقتدار .. ! !

وكانت حظوظ الإسلام وافية ، ومقاديره سعيدة ، إذْ جاءته هذه المحنة وأبو بكر حامل الراية ، وقائد الأمة ..

وبفضل من الله ورحمة ، تفوَّق الرجل الكبير ، والخليفة المؤمن على أخطار ، كانت حَرِيَّةً بأن تُداعِى بناء امبراطورية شامخة راسخة ، فما البالُ بدين ناشئ غضٍّ جديد .. ؟ !

وكانت تلك الأيام المزلزلة أعظم أيام الإسلام بعد رسول الله وأخصَبَها ، وأكثرها بركة عليه ، وخيراً لمصيره .

لقد سقطت الأقنعة عن الوجوه المتنكرة ، وتقايأت الصدور الموتورة كل أحقادها الدفينة ، وأقبلت النار المباركة تصهر الأمة الجديدة وتَنفى خبثَها بصورة شاملة ، وأكَّد إيمان أبى بكر مقدرته ، لا على اقتحام العقبات فحسب ، بل على أن يعلِّم الدنيا كلها أهمية الإيمان .

لقد آمن بأن الله حق ، وبأن الإسلام حق ، وبأن محمداً رسول الله حق .. فلم يَعُدْ له مع هذا الإيمان أن ينكُث أو يتردد ..

ولقد تركهم رسول الله على المحجَّة البيضاء ، ليلُها كنهارها .. وأبو بكر اليوم خليفة الرسول على هذا التراث ، وواجبه أن يفعل كل ما يعتقد أن الرسول كان يفعله لو أنه اليوم حى ..

أفكان الرسول يقف صامتاً أمام أولئك الكذبة الذين يحاولون أن يُنكِّسوا راية الحق ، ويطفئوا نور الله ..؟

إنهم برغم فساد منطقهم ، لم يتوسَّلوا بالمنطق ، بل حملوا السلاح وتنادَوْا لغزو المدينة .

فليصنع ما كان النبى صانِعَه ..

وهكذا أرسل بأسه العادل على المتمردين فى كل مكان ، وانتصرت جيوشه على تلك المعاقل .. ثم تعقَّبت المصادر الخفية المحركة للفتنة .. هناك فى الشام والعراق ، حيث كانت الروم والفرس تتخذان منهما مراكز وُثوب ، وأوكار مُؤامرة ..

وهناك فى الشام ، وفى العراق ، وفى دومة الجندل ، وجدت جيوش الإسلام قوماً عِطاشاً إلى الهُدى والعدل والأمن ..

أين المرتدُّون الذين حملوا السلاح ليقضوا على الدين الجديد ..؟؟

أين مسيلمة ، وطليحة ، وسجاح بجيوشهم الجرارة ..؟؟

أين أولئك الذين كانوا يتغنون وهم يرقصون بأسلحتهم قائلين :
فيالَعبادِ الله ، ما لِأَبى بكر ..؟!
لقد تمزقوا بَدَداً كبقايا زوبعة ضالّة ، وولَّوْا أمام الحق ، نائحين بشعر آخر :
ألا فاسْقِيَانى قَبل خَيْلِ أبى بكر لعلَّ منايانا قريبٌ . ولا نَدرِى ! !
« خَيل أبى بكر ..؟!!
لقد صارت هذه العبارة كقعقعة الهول فى أسماع الذين أرادوا أن يُخضعوا الحق للباطل .. ! !

* * *

ترى أى انقلاب هائل مَخر عُباب شخصية أبى بكر ..؟!
الحق أنه لم يكن ثمة انقلاب ما ، وليست مواقف الصديق مهما تتعاظم كلَّ مألوف بِغَريبةٍ عليه ..
فطبيعة هذا الرجل العظيم من الطبائع التى يتمّ نُضجها واكتمالها فى بواكير العمر دون أن يكون لها فى مقبِل الأيامِ نَشاز أوغرابةُ أطوار ، إنما يكون لها امتداد طبيعى فى الآفاق الواسعة لخصائصها ، وفضائلها ، وقُواها ..
فأبو بكر الوديع ، هو أبو بكر القوى ، منذ لبس ثوب الحياة .
وقوته هذه الصامدة العارمة التى تبدَّت عنه وهو خليفة ، هى نفس قوته التى كان يملك زمامها ورسول الله حى ..
لكنه فى أيام الرسول ، كان يجتهد أن يبقى فى الظلال ، فلا يقع عليه ضوء ، ولا يُعزَى إليه فضل .
أما بعد وفاة الرسول عليه السلام ، فقد صار – شاء أم أبى – صاحب الدور الأول والرئيسى على مسرح الأحداث .. ومن ثَمَّ لن يستطيع أن يُخفى

مزاياه وسْط الزحام ، لأن مسئولياته وضعَته أمام جميع الصفوف ..

وهكذا أُتيح للإسلام أن يرى بصورة أوضح ، خصائص ابنه المبارك العظيم .. ! !

إن قوته وصلابته اللتين يُواجه بهما مسئولياته كخليفة ، هما اللتان واجه بهما من قبل مسئولياته كمؤمن ..

* ففى الأيام الأولى للدعوة ، لم يكن يسمع أن الرسول فى أذى ، إلا ويهرول مسرعاً ، فيخلص الرسول من الأذى ويُسلم نفسه إليه .. ! !

* ويوم الهجرة ، تمتلئ نفسه غبطةً بصحبة رسول الله وهو على يقين بأن قريشاً ستُجَنِّد لمطاردتهما كل بَأسها وقواها ..

* ويوم بَدر ، يلازم الرسول فى خيمته وهو يعلم أن الخطر كله إنما يُحْدِق بهذه الخيمة ..

* ويوم أُحُد ، حين خالف الرُّماة أمر نبيهم ، ظانِّينَ أن المعركة قد انتهت بهزيمة قريش ، فتركوا موقعهم أعلى الجبل ، حيث عاد جيش قريش فدمْدَم على المسلمين وأصلاهم هزيمة أليمة .. وخلا الميدان إلا من جُثث الشهداء يمثل بها المشركون فى وحشية دَاكِنة .

يومئذ بَصُرَ الرسول بأبى بكر ، يجرى وحده إلى المشركين شاهراً سيفه ، فيناديه فى ضَرَاعة عالية :

« اغمد سيفك يا أبا بكر ، لا تَفْجَعْنا بنفسك » ..

ويُواصِل الرسول نداءه لأبى بكر آمراً إياه أن يعود ، فيعود .

فما كان له أن يعصى لرسول الله أمراً ، حتى لو حال الأمر بينه وبين جلال الاستشهاد الذى كان مندفعاً نحوه فى شوق عظيم .. ! !

* * *

هذه هى القوة الأمينة التى كان أبو بكر يستمدها من أعماق كِيانه ، ومن أعماق إيمانه ..

كيانُ عربى حُر ، تَلَقَّى من تربيته ومن بيئته أروع المزايا ..

وإيمانُ صِدِّيق عظيم ، يُؤثر أن تتخطفه الذئاب ، ولا يعصى لإيمانِه أمراً ..

وإن مواقفه الباهرة ، قبل الخلافة وبعدها ، لَتُشكِّل نموذجاً واحداً من القوة ، والأمانة ، وسلامة التقدير .

ذلك أن الله أنعم عليه بطبيعة قويمة ، وإيمان مكين .

إيمان رجل أسلم وجْهه لله ، وهو مُحْسِن ..

وأعطى حياته لإيمانه وهو مُغتبط ..

وحملَ مسئولياتِ دَوْره فى تُقًى ، وأمانة ، وبصيرة .. ! !